

الجزء الرابع عشر

سورة الحجر

هي مكية وآياتها تسع وتسعون .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

- (١) إنها افتتحت بمثل ما افتتحت به سابقتها من وصف الكتاب المبين .
- (٢) إنها شرحت أحوال الكفار يوم القيامة وتمنيهم أن لو كانوا مسلمين كما كانت السالفة كذلك .
- (٣) إن في كل منهما وصف السموات والأرض .
- (٤) إن في كل منهما قصصا مفصلا عن إبراهيم عليه السلام .
- (٥) إن في كل منهما تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم يذكر ما لاقاه الرسل السالفون من أمهم وكانت العاقبة للمتقين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١) رَبِّمَا يُؤَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهَهُمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ

يَعْلَمُونَ (٣) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَوْمٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (٤)
مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) .

شرح المفردات

ربما (بضم الراء وتخفيف الباء وتشديدها) كلمة تدل على أن ما بعدها قليل الحصول ، فإذا قيل ربما زارنا فلان دل على أن حصول الزيارة منه قليل ، يليهم : أى يشغلهم من قولهم : هُيئتُ عن الشيء ألهى لهياً إذا عرضت عنه ، ما تسبق : أى ما يتقدم زمان أجلها .

الإيضاح

(الآية) تقدم منا القول في بيان معاني هذه الحروف ومبانيها ، فذكرنا أنها حروف تلمية بمنزلة ألا ، ويا ، وينطق بأسمائها ساكنة فيقال : (ألف . لام . را) .
(تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) أى تلك السورة من آيات ذلك الكتاب الكامل من بين سائر الكتب المنزلة من عند الله ، المبين للرشد من الغي ، والمظهر في تضعيفه للحكم والأحكام .

(ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) هذا إخبار من الله عن الكفار بأنهم سيندمون في الآخرة على ما كانوا عليه من الكفر ، ويتمنون أن لو كانوا في الدنيا مسلمين . وعن أبي موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا بلى ، قالوا فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا في النار ؟ قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها ، فسمع الله ما قالوا ، فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا ، فلما رأى ذلك من نبي من الكفار قالوا يا ليتنا كنا مسلمين

فنتخرج كما خرجوا ، قال ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم - الرّ تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ، ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين .
ونحو الآية قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ قَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » . قال الزجاج : إن الكافر كلما رأى حالا من أحوال العذاب ورأى حالا من أحوال المسلم ودّ أن لو كان مسلما .

وقصارى ذلك - قد يتنمى الذين كفروا لو كانوا مسلمين حينما يعاينون العذاب وقت الموت : « وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْرَوْنَ عَذَابَ أَلْهُونَ » وفي الموقف حينما يرون هول العذاب وقد انصرف للمسلمون إلى الجنة وسيقوا هم إلى النار والمسلمون المذنبون عذبوا بذنوبهم ثم خرجوا منها وبقي الكافرون في جهنم .

وقد جاء التقليل على سنة العرب في نحو قولهم : ربما تندم على ما فعلت ، وإملكك تندم على ما فعلت ، لا يقصدون التقليل في نحو ذلك ، وإنما يريدون أن الندم لو كان مشكوكا فيه أو لو كان قليلا لحق عليك ألا تفعل هذا الفعل ، إذ العاقل يتحرز من التعرض للغم المظنون كما يتعرض للغم المتيقن ، ويتعد عن القليل منه كما يتعد عن الكثير .

(ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل) أى دعهم أيها الرسول في غفلاتهم كلون كما تأكل الأنعام ويتمتعون بلذات الدنيا وشهواتها ، وتلهيهم الآمال عن الآجال ، فيقول الرجل منهم غدا سأنال ثروة عظيمة وأحظى بما أشتهى ويعلوز كرى ويكثر ولدى ، وأبنى القصور ، وأكثر الدور ، وأقهر الأعداء ، وأفاخر الأنداد ، نحو ذلك مما يفرق فيه من بحار الآماني والآمال وطلب المحال .

ثم علل الأمر بتركهم بقوله :

(فسوف يعلمون) سوء صنيعهم إذا هم عاينوا سوء جزائهم ووخامة عاقبتهم .

وفي هذا وعيد بعد تهديد وإلزام لهم بالحجة ومبالغة في الإنذار ، وقد

جاء في أمثالهم (أعذر من أنذر) وإيماء إلى أن التأذ والتنعيم وعدم الاستعداد
للآخرة والتأهب لها - ليس من أخلاق المؤمنين .

أخرج أحمد والطبراني والبيهقي عن عمرو بن شعيب مرفوعا قال : « صلاح أول
هذه الأمة بالزهد واليقين ، ويهلك آخرها بالبخل والأمل » . وروى عن الحسن أنه
قال : ما أطال عيد الأمل ، إلا أساء العمل ، وروى عن علي أنه قال : إنما أخشى
عليكم اثنتين ، طول الأمل واتباع الهوى ، فإن طول الأمل ينسى الآخرة ، واتباع
الهوى يصد عن الحق .

وبعد أن هدد من كذب الرسول بقوله : ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل ،
ذكر سر تأخير عذابهم إلى يوم القيامة وعدم التعجيل به كما فعل بكثير من الأمم
السابقة فقال :

(وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم) أى وما أهلكنا قرية من القرى
بالخسف بها وبأهلها كما فعل ببعضها ، أو بإخلائها من أهلها بعد إهلاكهم كما فعل
بأخرى ، إلا ولها أجل مقدر مكتوب فى اللوح المحفوظ لا ينسى ولا يغفل عنه ولا يتقدم
عن وقته ولا يتأخر .

وخلاصة ذلك - إننا لو شئنا لعجلنا لهم العذاب فصاروا كأمس الدابر ، ولكن
لكل أجل كتاب ، وشأننا الإمهال لا الإهمال .

وبعد أن بين سبحانه أن الأمم المهلكة كان لكل منهم وقت معين لهلاكهم
على حسب ما هو مكتوب فى اللوح - بين أن كل أمة منهم ومن غيرهم لها أجل
لا يمكن التقدم عليه ولا التأخر عنه فقال :

(ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) أى لا يحىء هلاك أمة قبل محىء
أجلها ، ولا يتأخر الهلاك متى حل الأجل .

وفى هذا تنبيه لأهل مكة وإرشادهم إلى الإفلاخ عما هم عليه من الشرك والإلحاد

الذى يستحقون به الهلاك ، وزجر لهم بأن هذا الإمهال لا ينبغي أن يغفروا به ،
فالهلاك مدخر لهم لا يتقدم ولا يتأخر .

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا
بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا
بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ
لَحَافِظُونَ (٩) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعْبِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِمْ
مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسُكُّهُ فِي قُلُوبِ
الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا
عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ
أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥) .

شرح المفردات

الذكر : هو القرآن ، و (لوما) مثل (هالا) كلمة تفيد الحث والحض على فعل
ما يقع بعدها ، منظرين : أى مؤخرين ، والشيع : واحدهم شيعة وهى الجماعة المتفقة
على مبدأ واحد فى الدين والمعتقدات ، أو فى المذاهب والآراء . نسلكه : أى ندخله
يقال سلكت الخيط فى الإبرة : أى أدخلته فيها ، يعرجون : يضعدون ، سكرت :
سدت ومنعت من الإبصار ، مسحورون : أى سحرنا محمد بظهور ما أبداه من الآيات .

المعنى الجملى

بعد أن هدد سبحانه الكافرين وبالغ فى ذلك أيما مبالغة - شرع يذكر بعض
مقالاتهم فى محمد صلى الله عليه وسلم المتضمنة للكفر بما جاء به ، ثم يذكر ما هم فيه من

جحد وعناد بلغا مدى تنكره المشاهدات ، ويدعى معه السحر والخداع حين رؤية المبصرات .

ثم ذكر سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم تسليمة له أن ما صدر منهم من السفه ليس بدعا ، فهذا دأب كل مجنون ، فكثير من الأمم السالفة فعلت مثل هذا مع أنبيائها ، فلك أسوة بهم في الصبر على سفاهتهم وجهلهم .

قال مقاتل : القائلون هذه المقالة هم عبد الله بن أمية والنضر بن الحرث ونوفل ابن خويلد والوليد بن الغيرة من صناديد قريش .

الإيضاح

(وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون) أى قالوا استهزاء وتهكما : أيها الرجل الذى زعم أنه نزل عليه القرآن : إن ما تقوله أملاه عليك الجنون ، وليس له معنى معقول ، وهو مخالف لآرائنا ، بعيد من معتقداتنا ، فكيف نقبل ما لا تقبله العقول ، ولا ترضاه الفحول من رجالنا الفخام ، وعشائرننا العظام ؟ .

(لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين) أى إن كان ما تدعيه حقا وقد أيدك الله وأرسلك ، فما منعك أن تسأله أن ينزل معك ملائكة من السماء يشهدون بصدق نبوتك .

وخلاصة ذلك : إن من يخالف آراءنا إما مجنون وإما له سلطان عظيم من ربه .
وحيث يقويه بالملائكة ليشهدوا بصدقه .

ونحو الآية قوله : « وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ » وقول فرعون فى شأن موسى : « فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ أُسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِبِينَ » وقوله : « وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ، لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا » .

وقد أجاب الله عن اقتراحهم فقال :

(ما نزل الملائكة إلا بالحق) أى ما نزل الملائكة إلا بالحكمة والفائدة ، وليس في نزول الملائكة من السماء وأنتم تشاهدونهم - فائدة لكم ، لأنكم إذا رأيتموهم قلتم إنهم بشر لأنكم لا تطيقون رؤيتهم إلا وهم على الصورة البشرية إذ هم من عالم غير عالمكم ، وإذا قالوا نحن ملائكة كذبتموهم لأنهم على صورتكم فيحصل اللبس ولا تنفعون بهم وإلى هذا أشار في سورة الأنعام بقوله : **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ كَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلِلنَّاسِ عَلَيْهِمْ مَا يَلْدُسُونَ** .

(وما كانوا إذا منظرين) أى إن في نزول الملائكة ضررا لهم لاجتماعه ، لأننا نهلكهم ولا نؤخرهم ، إذ قد جرت عادتنا في الأمم قبلهم أنهم إذا اقترحوا آية وأنزلناها عليهم ولم يؤمنوا بها - يكون العذاب في إثرها ، فلو أننا أنزلناهم ولم يؤمنوا بهم لحق عليهم عذاب الاستئصال ولم يُنظَرُوا ساعة من نهار .
والخلاصة - إنه ليس في إنزال الملائكة إليهم فائدة لهم بل فيه اللبس عليهم ، إلى ما فيه من الضرر المحقق لهم وهو الهلاك ، وحينئذ يفوت ما قضينا به من تأخيرهم وإخراج من أردنا إيمانه من أصلابهم .

ثم أجاب سبحانه عن قولهم الأول وردَّ إنكارهم تنزيل الذكر واستهزاءهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وسلاه على ذلك بقوله :

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له حافظون) أى إنما أنتم قوم ضالون مستهزئون ببينا ، وليس استهزاؤكم بضائه ، لأننا نحن نزلنا القرآن ونحن حافظوه ، فقولوا إنه مجنون ، ونحن نقول : إنا نحفظ الكتاب الذى أنزلناه عليه من الزيادة والنقص والتغيير والتبديل والتحريف والمعارضة والإفساد والإبطال .

وسياتى فى مستأنف الأزمان من يتولون حفظه والذب عنه ويدعون الناس إليه ويستخرجون لهم ما فيه من عبر وحكم وآداب وعلوم تناسب ما تستخرجه

العقول من الحترعات ، وتستنبطه الأفكار من نظريات وآراء فيستتير بها العارفون ، ويهتدى بهديها المفكرون ، فلا تبتئس أيها الرسول بما يقولون وما يفعلون .
 ثم سلى رسوله على ما أصابه من سفه قومه وادعائهم جنونه - بأن هذا ذاب الأمم المكذبة لرسولها من قبل ، فلقد أصابهم مثل ما أصابك من قومك ، فاستهزؤا بهم كما استهزأ قومك بك ، فنصرنا وكتبنا أعداءهم وسيكون أمرهم وأمرهم كذلك ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين ، وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) أى إتنا أرسلنا قبلك رسلا للأمم قد مضت ، وما أتى أمة رسول إلا كذبوه واستهزؤوا به ، لما جرت به العادة من أن فعل الطاعات وترك اللذات - مستثقل على النفوس - إلى أنهم يدعونهم إلى ترك ما ألفوا من المعتقدات الخبيثة ، وترك عبادة الأوثان الباطلة ، وذلك مما يشق على النفوس ، إلى أن الرسول قد يكون فقيرا لا أعوان له ولا أنصار ، ولا مال ولا جاه ، فلا يتبعه الرؤساء وذوو البأس والقوة ، بل يعملون على مشاكسته ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، إلى أن الله يخذلهم ويلقى دواعى الكفر فى قلوبهم على حسب السنن التى سننها لعباده كما يرشد إلى ذلك قوله :
 (كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين ، لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين)
 أى كذلك نلقى القرآن فى قلوب المجرمين مستهزأ به غير مقبول لديهم ، لأنه ليس فى نفوسهم استعداد لتلقى الحق ، ولا تضىء نفوسهم بمصابيح هدايته الربانية ، كما كانت حال الأمم الماضية حين أقيت عليهم الكتب المنزلة من الملائ الأعلی .
 وقد جرت سنة الله فى الأولين ممن بعث إليهم الرسل أن يخذلهم ويدخل الكفر والاستهزاء فى قلوبهم ، ثم يهلكهم وتكون العاقبة للمتقين والنصر خليف رسله والمؤمنين ، فلك أسوة بالرسول قبلك مع أهمهم المكذبة ، وأست بأوحدى فى ذلك .

وإخلاصة - هكذا نعمل باللاحقين كما فعلنا بالسابقين ، ويستهزى بك

المجرمون ولا يؤمنون بكتابتنا ، وسيحل بهم مثل ما حل بالأولين وتضرك عليهم بعد حين كما قال : « وَتَعْلَمُونَ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » .

ثم بين سبحانه عظيم عنادهم ومكابرتهم للحق فقال :

(ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) أى ولو فتحنا على هؤلاء المعاندين بابا من السماء فظلوا فى ذلك الباب يصعدون فيرون من فيها من الملائكة وما فيها من العجائب - لقالوا لفرط عنادهم وغلوهم فى المكابرة : إنما سدت أبصارنا ، فما نراه تخيل لاحقيقة له ، وقد سحرنا محمد بما يظهر على يديه من الآيات .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ » .

وخلاصة هذا - هبنا فتحنا عليهم بابا من السماء وقلنا لهم اعرجوا فيه ، أفلا يقولون فى أنفسهم ويقول بعضهم لبعض : إنما سحرنا محمد كما يفعل علماء السيميا إذ يفعلون أفعالا تخيل للإنسان أنه طائر وليس بطائر ، وكما يفعل علماء التنويم المغناطيسى فى هذه الأيام ، فالنوم يقول المنوم . أنت ملك . أنت امرأة . أنت كذا فيصدق كل ما قيل له . وهكذا فى النوع البشرى أقوام لهم قدرة على استهواء العقول فيخيلون للإنسان ما لاحقيقة له ، وقد أصبح هذا العلم فنا يدرس فى معاهد أوروبا وأمريكا . فكيف يكون مثل هذا دليلا أو موجبا للتصديق ؟ كلا فإن أمثال ذلك لا يقوم بهداية نوع الإنسان .

وبعد فكيف يقترح هؤلاء عليك الآيات ، ويغرمون بما يخرق العادات ، من ملائكة يرونها ، وعجائب ينظرونها ، وهل تغنى تلك الآيات ، وهل النوع الإنسانى يكفيه ما يخالف العادات ؟ فما يشتبهه على الناس بأفعال السحرة والمشعوذين يوقعهم

في اللبس ، فبكم من نبي أيدناه بمثل تلك الآيات ولم يؤمن به من قومه إلا قليل منهم وما الآيات إلا ما تفهمه العقول ، وتمحصه القرائح درسا وتحليلا ، وبحثا واستنباطا .

وَأَقْدَجَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠)

شرح المفردات

البروج : واحدها برج وهي النجوم العظام ومنها نجوم البروج الاثني عشر المعروفة في علم الفلك ، للناظرين : أى المفكرين المستدلين بذلك على قدرة مقدرها ، وحكمة مدبرها ، وحفظناها : أى منعناها ، والرجيم : أى المرجوم المرى بالرجام : أى الحجارة والمراد بالرجيم هنا المرى بالنجوم ، واسترق من السرقة ، وهي أخذ الشيء خفية ، شبه به خطقتهم اليسيرة من الملاء الأعلى ، والسمع : المراد به ما يسمع ، والشهاب : الشعلة الساطعة من النار الموقدة ومن السحاب في الجو ، وتبعت القوم تبعاً وتباعة بالفتح : أى مشيت خلفهم أو مروا بك فضيت معهم ، وأتبعت القوم إذا كانوا قد سبقوك فلحقتهم ، مددناها : أى بسطناها ، والرواسي : واحدها راسية وهي الجبال الثوابت ، موزون : أى مقدر بمقدار معين تقتضيه الحكمة والمصلحة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر شديد جحودهم وأنهم مهما أوتوا من الآيات لم يفدوهم ذلك شيئاً حتى بلغ من أمرهم أن يشكروا المشاهدات ويدعوا الخداع حين رؤية المبصرات

- أعقب هذا بيان أنهم قد كانوا في غنى عن كل هذا ، فإن في السماء وبروجها العالية ، وشمسها الساطعة ، وأقمارها النيرة ، وسياراتها الدائرة ، وثوابتها الباسقة ، عبرة لمن اعتبر ، وحجة لمن ادّكر ، فهلاًّ نظرنا إلى الكواكب وحسابها ونظامها ومداراتها ، وكيف حدثت بها الفصول والسنون ، وكيف كان ذلك بمقادير محدودة وأوقات معلومة ؟ لا تغيير فيها ولا تبدل ، فبأمثال هذا يكون اليقين ، وبالتدبير فيه تقوى دعائم الدين ، ويشتد أزر سيد المرسلين .

وهلا رأوا الأرض كيف مدّت ، وثبتت جبالها ، وأنتجت نباتها ، بمقادير معلومة موزونة في عناصرها وأوراقها ، وأزهارها وثمارها ، وجعل فيها معاش للإنسان والحيوان ، أفلا يعتبرون بكل هذا ؟ « **وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟** » .

الإيضاح

(ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين) أى ولقد خلقنا في السماء نجوماً كباراً ثوابت وسيارات ، وجعلناها وكواكبها بهجة لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من عجائبها الظاهرة ، وآياتها الباهرة التي يحار الفكر في دقائق صنعها ، وقدرة مبدعها .

ونحو الآية قوله تعالى : « **إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ** » .

(وحفظناها من كل شيطان رجيم) أى ومنعنا كل شيطان رجيم من القرب منها كما قال في آية أخرى : « **وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ** » أى وحفظناها من كل شيطان خارج من الطاعة يرميه بالشهب كما تحفظ المنازل من متجسس يخشى منه الفساد .

(إلامن استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) أى لسنن من أراد اختطاف

شيء من عالم الغيب مما يتحدث به الملائكة في الملأ الأعلى - تبعه كوكب مشتمل

نارا ظاهرا للمبصرين فأحرقه ، ولم يصل إلى معرفة شيء مما يدبر في ملكوت السموات ، وبهذا المعنى قوله : « لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذُّونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ »

وجاء بمعنى الآية قوله في سورة الجن حكاية عنهم : « وَأَنَا لَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلَمَّتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ، وَأَنَا كَذًّا نَقَعُدُّ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَيْبًا يَاصِدًّا » وقوله في سورة الملك : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ » .

وبعدُ فالكتاب الكريم أخبر بأن الشياطين أرادوا أن يختطفوا شيئاً من أخبار الغيب مما لدى الملائكة الكرام ، فسلطت عليهم الشهب المشتعلة والنجوم المتقدة فأحرقتهم ، ولا نبحت عن معرفة كنه ذلك ، ولا نعلم في النظر لنذكر حقيقته ، لأننا لم نوت من الوسائل والأسباب ما يمكننا من معرفة ذلك معرفة صحيحة ، تجعلنا نؤمن به إيماناً مبنياً على البرهان بوسائله المعروفة ، وليس لنا إلا التصديق بما جاء في الكتاب وأوحى به إلى النبي الكريم ، والبحث وراء ذلك لا يقفنا على علم صحيح بل على حدس وتخمين لاحاجة المسلم به للاطمئنان في دينه ، فالأحرى به أن يعرض عنه لئلا يحميد عن القصد ويضل عن سواء السبيل .

وبعد أن ذكر الدلائل السماوية على وحدانيته أتبعها بذكر الدلائل الأرضية فقال : (والأرض مددناها) أي وقد بسطنا الأرض وجعلناها ممتدة الطول والعرض والعمق ، ليكن الانتفاع بها على الوجه الأكمل ، وهذا فيما يظهر في مرأى العين ، فلا يدل على نفى الكروية عن الأرض ، لأن الكرة العظيمة ترى كالسطح المستوي (وألقينا فيها رواسي) أي وجعلنا فيها جيالا ثوابت خوف أن تضطرب بسكانها كما قال في آية أخرى : « وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ » وقد سبق تفصيل ذلك في سورة الرعد :

(وأبتقتا فيها من كل شيء موزون) أى إن كل نبات قد وزنت عناصره وقدرت تقديرا ، فترى العنصر الواحد يختلف فى نبات عنه فى آخر بواسطة امتصاص الغذاء من العروق الضاربة فى الأرض ومنها يرفع إلى الساق والأغصان والأوراق والأزهار ، والذى حدد هذا الاختلاف ، تلك الفتحات الشعرية التى فى ظواهر الجذور ، وثقوب كل نبات لاتسع إلا المقدار اللازم لها من العناصر وتطردها ما سواه ، لأنه لا يلائمها ، إذ هى قد كونت على هيئة خاصة بحيث لا تتبلع إلا تلك المقادير بعينها .

وهناك عنصر البوتاس تره يدخل فى حب الذرة الذى نأكله بمقدار ٣٣٪ .
وفى القصب ٣٤٣٪ . وفى البرسيم بمقدار ٣٤٦٪ . وفى البطاطس بمقدار ٦١٥٪ .
وبهذا التفاوت صلح القصب لأن يكون سكرا ، والبرسيم لأن يكون قوتا للبهائم ، والذرة والبطاطس لأن تكونا قوتا للإنسان .

وحسبك دليلا على ذلك ما تجده فى سورة الرحمن من قوله : « وَوَضَعَ الْمِيزَانَ
أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ » كما نظم سبحانه الكواكب فى سيرها وفى أوضاعها وفى حركاتها وفى أضوائها ، ووزن عناصرها بمقادير يتناسب بعضها مع بعض .
فلك الحمد ربنا جعلت كل شيء فى الحياة موزونا بقدر معلوم لتندبر نظم الحياة فنعرف قدرة منشىء العالم وأنه لم يخلق شيئا فيه جزافا ، بل قدره بقدر معلوم ، ليكون فيه دليل على قدرة المبدع والمدير له حال وجوده .

(وجعلنا لكم فيه معاش) أى إن أنواع معاشكم من غذاء وماء ولباس ودواء قد سخرناها لكم فى الأرض ، فلا السمك فى البحر غذيتهم ، ولا الطير فى الجور يتيتموه ، ولا غيرهما من أشجار الجبال والغابات وحيوان البر والبحر خلقتموه .
(ومن لستم له برازقين) أى وجعلنا لكم فيها من لستم رازقيه من العيال والماليك والخدم والدواب ، وفى هذا إيماء إلى أن الله يرزقهم وإياهم لا أنهم يرزقون منهم ، وفى ذلك عظيم المنة وجزيل الفضل والعطاء وواسع الرحمة لعباده .

وخلاصة هذا — إنه سبحانه يسر لكم أسباب المكاسب ، وصنوف المعاش
وسخر لكم الدواب التي تركبونها ، والأنعام التي تأكلونها ، والعبيد التي
تستخدمونها ، فكل أولئك رزقهم على خالقهم لاعليكم ، فلكم منها المنفعة ووزقها
على الله تعالى .

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١)
وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَافِحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَا كَوْمَهُ وَمَا أَنْتُمْ
لَهُ بِمُحَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ
عَامَنَّا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ
يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)

شرح المفردات

الجزائن : واحدها خزانة وهي المكان الذي يحفظ فيه نفائس الأموال ،
واللواقيح : واحدها لاقح أي ذات لقاح وحمل ، وأسقينا كوه : أي جعلناه لكم
سقىا لمزارعكم ومواشيكم ، تقول العرب إذا سقت الرجل ماء أولبنا سقيته وإذا أعدوا
له ماء لشرب أرضه أو ماشيته قالوا أسقيته أو أسقيت أرضه أو ماشيته ، والمستقدمين :
من ماتوا ، والمستأخرين : الأحياء الذين لم يموتوا بعد .

المعنى الجملي

بين سبحانه فيما سلف أنه أنزل النبات وجعل لنا فيه معاش في هذه الحياة
وهنا أتبعه بذكر ما هو كالسبب في ذلك ، وهو أنه تعالى مالك كل شيء ، وأن كل
شيء سهل عليه ، يسير لديه ، فإن عنده خزائن الأشياء من الثبات والمعادن النفيسة
والخلائق البديعة مما لا حصر له .

الإيضاح

(وإن من شيء إلا عندنا خزائنه) أى ما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده والإنعام به متى أردنا دون أن يكون تأخير ولا إبطاء ، فغزائن ملكنا مليئة بما تحبون من النفائس ، غير محجوبة عن الباحث الساعى إلى كسبها من وجوهها على حسب السنن التى وضعناها ، والنظم التى قدرناها ، ولا يمنعها مانع ، ولا يستطيع دفعها دافع ، فهى تحت قبضة الطالب لها إذا أحسن المسعى ، وأحكم الطالب كما قال : « فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِيَّاهِ النَّشُورُ » .
 (وما نزله إلا بقدر معلوم) أى وما نعطي ذلك إلا بقطر محدود نعلم أن فيه الكفاية لدى الحاجة ، وفيه الرحمة بالعباد كما قال : « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » :

وقد جرت سنة القرآن بأن يسمى ما يصل إلى العباد بفضل الله وجوده إنزالا كما قال : « وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ » وقال : « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » .

ثم فصل بعض ما فى خزائنه من النعم فقال :

(وأرسلنا الرياح لواقح) أى إن من فضله على عباده وإحسانه إليهم أن أرسل إليهم الرياح لواقح ، ويكون ذلك على ضروب :

(١) أن يرسلها حاملات للسحاب فتلقح بها الأشجار بما تنزل عليهما من الأمطار فتغيرها من حال إلى حال فتعطيها حياة جديدة؛ إذ تزدهر أزهارها ، وتثمر أغصانها ، بعد أن كانت قد ذبلت وصوحت وأصبحت فى مرأى العين كأنها ميتة لاحتيا فيها كما قال تعالى : « وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ » .

(٢) أن يرسلها ناقلة لقمح الأزهار الذكور إلى الأزهار الإناث لتخرج الثمر والقواكه للناس .

(٣) أن يرسلها لتزيل عن الأشجار ماعلق بها من الغبار لينفذ الغذاء إلى مسامها فيكون ذلك رياضة للشجر والزرع كرياضة الحيوان .

(فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه) أى فأنزلنا من السحاب مطرا فأسقيناكم ذلك المطر لشرب زرعكم ومواشيكم ، وفى ذلك استقامة أمور معاشكم وتديبر شئون حياتكم إلى حين كما قال : « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا » .

(وما أنتم له بخازنين) أى ولستم بخازنى الماء الذى أنزلناه فتمنعوه من أن أسقيه من أشاء ، لأن ذلك بيدى وهو خاضع لسلطانى ، إن شئت حفظته على سطح الأرض وإن شئت غار فى باطنها وتخلل طبقاتها ، فلا أبقى منه شيئا ينفع الناس والحيوان ويسقى الزرع الذى عليه عماد حياتكم .

وإخلاصة — نحن القادرون على إيجاده وخرزته فى السحاب وإزاله ، وما أنتم على ذلك بقادرين .

وبعد أن ذكر نظم المعيشة فى هذه الحياة ذكر إحياء الإنسان وإمانته فقال : (وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون) أى وإنا لنحيي من كان ميتا إذا أردنا ، ونميت من كان حيا إذا شئنا ، ونحن نرث الأرض ومن عليها فتميتهم جميعا ولا يبقى حى سوانا ، ثم نبعثهم كلهم ليوم الحساب فيلحق كل امرئ جزء ما عمل إن خيرا وإن شرا .

ثم أقام الدليل على إمكان ذلك وأثبت قدرته عليه فقال :

(ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) أى ولقد علمنا من مضى منكم وأحصيناهم وما كانوا يعملون ، ومن هو حى ومن سيأتى بدمكم ، فلا تخفى علينا أحوالكم ولا أعمالكم ، فليس بالعمير علينا جمعكم يوم التناد للحساب والجزاء يوم يفتخ فى الصور كما قال :

(وإن ربك هو يحشرهم) فيجمع الأولين والآخرين عنده يوم القيامة ، من أطاعه منهم ومن عصاه ويجازى كلا بما عمل على حسب ما وضع من السنن ، وقدر من ارتباط المسببات بأسبابها ، وجعل لكل عمل جزاء له .
ثم أكد هذا وزاده إيضاحاً فقال :

(إنه حكيم عليم) أي إنه تعالى باهر الحكمة واسع العلم ، فهو يفعل ما يشاء على مقتضى الحكمة والعدل ، وما يؤيده من سعة العلم والفضل .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ
خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ الْمَلَائِكَةَ إِنِّي
خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ
فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ
يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ
لِلْإِسْجَادِ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَأَخْرِجْهُ
مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ
رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧)
إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي
الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ
هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ

اتَّبِعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢). وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣). لَهَا سَبْعَةُ
أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤).

شرح المفردات

صلصال : أى طين يابس يصلصل ويصوت إذا نقر وهو غير مطبوخ ، فإذا طبخ فهو فخار ، وحما : أى طين تغير واسود من مجاورة الماء له واحدته حماة ، ومسنون : أى مصور مفرغ على هيئة الإنسان كالجواهر المذابة التي تصب في القوالب ، والجنان أى هذا الجنس كما أن الإنسان يراد به ذلك ، فإذا أريد بالإنسان آدم أريد بالجان أبو الجن ، ونار السيوم : هى النار الشديدة الحرارة التي تقتل وتنفذ في المسام ، بشرا : أى إنسانا وسمى بذلك لظهور بشرته أى ظاهر جلده ، سويته : أى أتمت خلقه وهياته لنفخ الروح فيه ، والنفخ : إجراء الريح من القم أو غيره في تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها ، ويراد به هنا إضافة ما به الحياة على المادة القابلة لها ورجيم : أى مرجوم مطرود من كل خير وكرامة ، اللعنة : الإبعاد على سبيل السخط يوم الدين : أى يوم الجزاء ، فأنظرنى : أى أمهلى وأخرنى ولا تمننى ، ويوم الوقت المعلوم : هو وقت النفخة الأولى حين تموت الخلائق كما روى عن ابن عباس ، والإغواء : الإضلال ، هذا صراط على : أى هذا صراط حق لا بد أن أراعيه ، مستقيم : أى لا انحراف فيه فلا يعدل عنه إلى غيره ، والسلطان : التسايط والتصرف بالإغواء ، سبعة أبواب : أى سبع طبقات ، جزء مقسوم : أى فريق معين مفروز من غيره :

الإيضاح

(ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون) أى ولقد خلقنا أول فرد من أفراد الإنسان من طين يابس يصلصل ويصوت إذا نقر ، أسود متغير مفرغ في قالب ليحذف ويبس كالجواهر المذابة التي تصب في القوالب .

ونحو الآية قوله : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ . وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ » وقد جاء خلق آدم على أطوار مختلفة فكان أولا ترابا كما قال : « إِنْ مَثَلُ عَيْسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ » ثم كان طينا كما قال : « إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ » ثم كان صلصالا من حمأ مسنون كما جاء في هذه الآية وإنما خلقه على ذلك الوضع ليكون خلقه أعجب وأتم في الدلالة على القدرة .

(والجنان خلقناه من قبل من نار السموم) أى وخلقنا هذا الجنس من قبل خلق آدم من نار الريح الحارة التي لها الفح وتقتل من أصابته .

وعن ابن مسعود هذه السموم جزء من سبعين جزءا من السموم التي خلق منها الجن ثم قرأ : (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) وقد ورد في الصحيح « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجن من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » .

وفي الآية إيماء إلى شرف آدم عليه السلام وطيب عنصره وطهارة محبته ، وعلينا أن نؤمن بأن الجن خلقت من النار، ولكننا لانعرف كنه ذلك ولا حقيقته ، فذلك ما لاسبيل إلى معرفته إلا من طريق الوحي .

وبعد أن ذكر سبحانه في معرض الدليل على قدرته - خلق الإنسان الأول ، ذكر بعده مقاله للملائكة والجن بشأنه فقال :

(وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين . قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون) أى واذكر أيها الرسول لقومك حين نود ربكم بذكر أيكم آدم في ملائكته قبل خلقه ، وتشرىفه بأمر الملائكة بالسجود له ، وتخاف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة حسدا وعنادا واستكبارا بالباطل فقال : لم أكن لأسجد الخ .

وحكى عنه في آية أخرى أنه قال : « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » .

وتقدم هذا القصص في سورة الأعراف وقلنا بهناك : إن الأمر بالسجود أمر تكليفي ، وأنه قد وقع حوار بين إبليس وربه ، ويرى كثير من العلماء أن القصة بيان لغرائز البشر والملائكة والشیطان ، إذ جعل الملائكة وهم المدبرون لأمور الأرض بإذن ربهم مسخرون لآدم وذريته ، وجعل هذا النوع مستعدا للانتفاع بالأرض كلها لعلمه بسنن الله فيها وعمله بهذه السنن ، فانتفع بمائها وهوائها ومعادنها ونباتها وحيوانها وكهر بانها ونورها ، وبذا أظهر حكمة الله في خلقها ، واصطفى بعض أفرادهم بوحية ورسالته وجعلهم مبشرين ومنذرين ، وجعل الشيطان عاصيا متمردا على الإنسان وعدوا له ، وجعل النفوس البشرية وسطا بين النفوس الملكية المقطورة على طاعة الله وإقامة سننه في صلاح الخلق ، وبين أرواح الجن الذين يغلب على شرارهم - الشياطين - التمرد والعصيان .

وقد ذكر سبحانه حجج إبليس وذكر سبب امتناعه عن السجود لآدم بأنه خير منه فإنه خلق من النار وآدم من الطين والنار خير من الطين وأشرف منه ، والشريف لا يعظم من دونه ولو أمره ربه بذلك . وفي هذا ضروب من الجهالة وأنواع من الفسق والعصيان فإنه :

- (١) اعترض على خالقه بما تضمنه جوابه .
- (٢) احتج عليه بما يؤيد به اعراضه .
- (٣) إنه جعل امتثال الأمر موقوفا على استحسانه وموافقته لهواه ، وهذا رفض لطاعة الخالق وترفع عن مرتبة العبودية .

(٤) استدلاله على خيريته بالمادة التي منها التكوين ، وخيرية المواد بعضها على بعض أمر اعتباري تختلف فيه الآراء ، إلى أن الملائكة خلقوا من النور وهو قد خلق من النار ، والنور خير من النار ، وهم قد سجدوا امتثالاً لأمر ربهم .

(٥) إنه قد جهل ما خص به آدم من استعداده العظمى والعملى أكثر من سواه، ومن تشريفه بأمر الملائكة بالسجود له، فكان بذلك أفضل منهم، وهم أفضل من إبليس بعنصر الخلة والطاعة لربهم .

(قال فأخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين . قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم) أمره سبحانه أمرا كونيا لا يخالف بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملا الأعلى ، ثم جعله مرجوما مطرودا وأتبعه لعنة لاتزال متواصلة لاحقة به متواترة عليه إلى يوم القيامة وهو يبعث الخلق من قبورهم فيحشرون لموقف الحساب وهو وقت النفخة الأولى ، فلما تحقق النظر .

(قال رب بما أغويتني لأزيننَّ لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين) أي قال إبليس : رب بسبب إغوائك إياي وإضلالى لأزينن للبرية آدم وأحبين إليهم المعاصي وأرغبهم فيها ولأغوينهم كما أغويتني وقدرت على ذلك إلا من أخلص منهم لطاعتك ، ووقفته لهدايتك ، فإن ذلك ممن لاساطان لى عليه ولا طاقة لى به .

ثم هدهه سبحانه وأوعده بقوله :

(قال هذا صراط على مستقيم) أي قال هذا طريق مرجعه إلى فأجازى كل امرئ بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، كما يقول القائل لمن يتوعدده ويتهدده : طريقك على . وأنا على طريقك : أي لا مهرب لك منى ، ونظير الآية قوله تعالى : « **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** » .

وهذا رد لما جاء فى كلام إبليس حيث قال : « **لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ** .

ثُمَّ **لَا يَتَنَبَّأهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ** » الآية .

(إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) أى إن عبادى

لاسلطان لك على أحد منهم سواء أكانوا مخلصين أم غير مخلصين ، لكن من أتبعك باختياريه صار من أتباعك .

وقال سفيان بن عيينة : ليس لك عليهم قوة ولا قدرة على أن تلقهم في ذنب يضيق عنه نفوس .

والخلاصة — إن إبليس أَوْهم أن له على بعض عباد الله سلطانا بقوله لأزوين لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ، فأكذبه الله بقوله إن عبادي الخ .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عن إبليس : « وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي » وقوله : « إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ » .

(وإن جهنم لموعدهم أجمعين) أى وإن جهنم موعدهم جميع من اتبع إبليس وهى مقرهم وبئس المهاد جزاء ما اجترحوا من السيئات وكفء ما دنسوا به أنفسهم من قبيح المعاصي .

(لها سبعة أبواب) أى لها سبع طبقات ينزلونها على حسب مراتبهم فى العوایة والضلالة .

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها : جهنم والسعير والظى والحطمة وسقر والجحيم والهاوية وهى أسفلها .

(لكل باب منهم جزء مقسوم) أى كتب لكل باب منها فريق معين من أتباع إبليس يدخلونه ولايحيد لهم عنه على حسب أعمالهم واختلاف مراتبهم فى النار .

قال ابن جريج : النار سبع دركات وهى جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية ؛ فأعلاها للعصاة الموحدين ، والثانية لليهود ، والثالثة للنصارى ، والرابعة للصائين ، والخامسة للمجوس ، والسادسة للمشركين ، والسابعة للمنافقين ، فجهم أعلى الطبقات ثم ما بعدها تحتها وهكذا .

وروى عن ابن عباس أن جهنم لمن ادعى الربوبية ، ونظى لعبدة النار ، والحطمة
 لعبدة الأصنام ، وسقر لليهود ، والسعير للنصارى ، والجحيم للصابئين ، والهاوية
 للموحدين العصاة ، وهؤلاء يرجى لهم ولا يرجى لغيرهم أبدا . وليس في هذا أثر
 مرفوع يمكن أن يركن إليه ويجعل حجة فيه .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ (٤٦)
 وَتَرَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَسْمَعُ فِيهَا
 نَبْصٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا مُخْرَجِينَ (٤٨) .

شرح المفردات

المتقون : هم الذين اتقوا الكفر والفواحش ولهم ذنوب من الصغائر تكفرها
 الصلوات وغيرها ، جنات : أى بساتين ، وعيون : أى أنهار جارئة ، بسلام : أى
 سلامة من الآفات وأمن من الخنافات ، والغل : الحقد الكامن فى القلب ، والسرر :
 واجدها سرير وهو مجلس رفيع ميبأ للسرور ، والنصب : الإعياء والتعب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال أهل النواية وبين أنهم فى نار جهنم يخلدون فيها أبدا
 وأنهم يكونون فى طبقات بعضها أسفل من بعض بمقدار ما اجتروا من السيئات ،
 واقترفوا من المعاصى - أردفه بذكر حال أهل الجنة وما يتمتعون به من نعيم مقيم ،
 ووافق بعضهم مع بعض ، لاضغن بينهم ولا حقد ، وهم يتحدثون على سرر متقابلين
 ولا يجدون مس التعب والنصب ، ولا يخرجون منها أبدا .

الإيضاح

(إن المتقين في جنات وعيون) أى إن الذين اتقوا الله وخافوا عقابه فأطاعوا أوامره واجتنبوا نواهيه - يتمتعون في جنات تجري من تحتها الأنهار كما قال : « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ » الآية .

(ادخلوها بسلام آمنين) أى ويقال لهم : ادخلوها وأنتم سالمون من الآفات والمنغصات ، آمنون من سلب تلك النعم التي أنعم بها ربكم عليكم وأكرمكم بها ولا تخافون إخراجا ولا فناء ولا زوالا .

(ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين) أى وأخرجنا ما في صدور هؤلاء المتقين الذين ذكرت صفتهم - من حقد وضغينة بعضهم لبعض .

روى القاسم عن أبي أمامة قال : يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشقاء والضغائن ، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غل ثم قرأ : (ونزعنا ما في صدورهم من غل) .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن علي كرم الله وجهه أنه قال لابن طلحة : إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله تعالى (ونزعنا ما في صدورهم) الآية . فقال رجل من همدان : إن الله سبحانه أعدل من ذلك ، فصاح على صيحة تدعى لها القصر ، وقال : فمن إذا إن لم تكن نحن أولئك .

والخلاصة - إن الله طهر قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة ونزع منها كل غل وألقى فيها التواد والتحاب والتصافي ، والمراد بكونهم على سرر متقابلين أنهم في رفعة وكرامة ، وقد روى أن الأسرة تدور بهم حيثما داروا فهم في جميع أحوالهم متقابلين لا ينظر بعضهم إلى أفضية بعض ، وهم يجتمعون ويقنادمون ويتزاورون ويتواصلون .

(لا يسمهم فيها نصب) أى لا يلحقهم فى تلك الجنات مشقة ولا أذى ، لأنهم ليسوا فى حاجة إلى ما يوجب ذلك من السعى فى تحصيل ما لا بد لهم منه ، لحصول كل ما يشتهون من غير مزاولته عمل .

روى الشيخان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله أمرنى أن أبشر خديجة بيت فى الجنة من قصب لاصخب فيه ولا نصب .

(وماهم منها بمخرجين) أى وهم خالدون فيها أبدا لا يرحلون ، يشعرون بلذة النعيم ودوامه ، فهم فى خلود بلا زوال ، وكال بلا نقصان ، وفوز بلا حرمان .
والخلاصة — إن المسرة بالنعيم لا تتم إلا إذا توافرت أمور :

(١) أن يكون مقرونا بالتعظيم ، وإلى ذلك الإشارة بقوله : (ادخلوها بسلام آمنين) .

(٢) أن يكون خالصا من شوائب الضرر ، روحانية كانت كالحقد والحسد والغضب ، وإلى ذلك الإشارة بقوله (ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا) أوجسمانية كالإعياء والتعب ، وإلى ذلك الإشارة بقوله (لا يسمهم فيها نصب) .

(٣) أن يكون دائما غير قابل للزوال ، وإلى ذلك الإشارة بقوله (وماهم منها بمخرجين) .

نَبِيٌّ عِبَادِي أَيْ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠) وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْ مُحَمَّدًا عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكَبِيرُ فَبِمَ تَبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ

إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا
 إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٦٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ
 قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْعَابِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ
 إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَسْتَمِرُّونَ
 (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ
 وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥)
 وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هُوٓءِلَاءَ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) وَجَاءَ
 أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هُوٓءِلَاءَ ضِئْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨)
 وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ؟ (٧٠) قَالَ
 هُوٓءِلَاءَ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ
 (٧٢) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا
 عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّمَا
 لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ
 الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) وَلَقَدْ
 كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا
 مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذْتَهُمُ
 الصَّيْحَةَ مُّصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤)

شرح المفردات

تقول : أنبأت التوم إنباءً ونباتهم تنبئةً : إذا أخبرتهم ، والأفصح في كلمة الضيف :
 ألا تثنى ولا تجمع حين تستعمل للمثنى والجمع والمؤنث بل تستعمل بلفظ واحد لكل
 ذلك ، والوجل : اضطراب النفس لخوفها من توقع مكروه يصيبها ، عليم : أى
 ذى علم كثير ، بالحق : أى بالأمر المحقق الذى لا شك فى وقوعه ، وقنط من كذا :
 أى يتس من حصوله ، والضالون : الكفار الذين لا يعرفون كمال قدرته تعالى وسعة
 رحمته ، وخطبكم : أى أمركم وشأنكم الذى لأجله أرسلتم ، قدرنا : أى قضينا وكتبنا ،
 يقال قضى الله عليه كذا وقدره عليه : أى جعله على مقدار الكفاية فى الخير والشر ،
 وقدر الله الأقوات : جعلها على مقدار الحاجة ، والغابرين : أى الباقين مع الكفار
 ليهلكوا معهم ، وأصله من الغبرة وهى بقية اللبن فى الضرع ، منكرون : أى
 لا أعرفكم ولا أعرف من أى الأقوام أتم ؟ ولأى غرض دخلتم على ؟ ويمترون :
 أى يشكون ويكذبون به ، فأسر بأهلك : أى اذهب بهم ليلاً ، والقطع من الليل :
 الطائفة منه كما قال :

افتحى الباب وانظرى فى النجوم كم علينا من قطع ليل بهم
 اتبع أدبارهم : أى كن على إثرهم لتسرع بهم وتطلع على أحوالهم ، وقضينا :
 أى أوحينا ، ودابرهم : آخرهم ، ومقطوع : أى مهلك مستأصل ، مصبحين : أى
 فى وقت الصباح ، والمدينة : هى سدوم (بالذال المعجمة) مدينة قوم لوط ، والاستبشار :
 إظهار السرور ، والفضيحة : إظهار ما يوجب العار ، والخزى : الذل والهوان ، والعمر
 والعمر (بالفتح والضم) : الحياة ، وهو حين القسم بالفتح لا غير ، سكرتهم ، غوايتهم ،
 يعمهون : أى يتحيرون ، والصيحة : الصاعقة ، وكل شئ أهلك به قوم فهو صيحة
 وصاعقة أخرجه ابن المنذر عن ابن جرير ، ومشرقين : أى داخلين فى الشروق ،
 وهو بزوغ الشمس ، والسجيل : الطين المتحجر وهو مغرب لآعربى فى المشهور ،

المتوسمين : أى المتفرسين الذين يثبتون فى نظرهم ليعرفوا سمة الشئ وعلامته ، يقال توسمت فى فلان خيرا : أى ظهرت لى منه علاماته ، قال عبد الله بن رواحة يمدح النبى صلى الله عليه وسلم :

إنى توسمت فىك الخير أعرفه والله يعلم أنى ثابت البصر
 لبسبيل مقيم : أى لطريق واضح معلم ليس بخفى ولا زائل ، وأصحاب الأيكة : قوم شعيب عليه السلام ، والأيكة : العيضة ، وهى الشجر الملتف بعضه على بعض وقد كانوا فى مكان كثير الأشجار كشيف الغبار ، لبامام مبين : أى لطريق واضح وأصل الإمام ما يؤتم به سعى به الطريق لأنه يؤتم ويتبع ، وأصحاب الحجر : هم ثمود ، والحجر : واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه ، ويسمى كل مكان أحيط بالحجارة حجرا ومنه حجر الكعبة ، وآياتنا : هى الناقة وفيها آيات كثيرة كعظم خلقها وكثرة لبنها وكثرة شربها ، والإمام : ما يؤتم به ومن جملة ذلك الطريق التى تسلك .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أوعده به أهل الغواية فى يوم القيامة من دخول جهنم ، وذكر أنها دركات لأولئك الغاوين على حسب اختلاف أحوالهم بمقدار ما دنسوا به أنفسهم من اتخاذ الأنداد والشركاء وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ثم أعقبه بذكر ما أعد لعباده المؤمنين من الجنات والعيون والنعيم المقيم والراحة التى لا نصب بعدها ولا تعب ، والجلوس بعضهم مع بعض يتنادمون ويتجادون أطراف الأحاديث وهم فى سرور وحبور على سرر متقابلين - أردف ذلك بفدلسة وخلاصة لما سبق ، فأمر نبيه أن يبلغ عباده أنه غفار لذنوب من تابوا وأنابوا إلى ربهم ، وأن عذابه مؤلم لمن أصروا على المعاصى ولم يتوبوا منها ، ثم فصل ذلك الوعد والوعيد فذكر البشارة لإبراهيم بفلام عليم ، وذكر إهلاك قوم لوط بما اجترحوا من كبرى الموبقات ، وفطيع الجنائيات ، بفعلهم فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، حتى

صاروا كأمس الدابر وأصبحوا أثرا بعد عين ، وإهلاك أصحاب الأيكة قوم شعيب جزاء ظلمهم بشركهم بالله وتقصيرهم للكفايل والموازن ، فانتقم الله منهم بعذاب يوم الظلة ، وإهلاك أصحاب الحجر وهم ثمود الذين كذبوا صالحا وكانوا ذوى حول وطول وغنى ومال وقوة وبطش ، فأعرضوا عن آيات ربهم حينما جاءتهم على يدى رسوله ، فأخذتهم الصيحة وقت الصباح ولم يغن عنهم ما لهم من دون الله شيئا حين جاء أمره .

أخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق عطاء بن أبي رباح عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : « طلع علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الباب الذى يدخل منه بنو شيبه فقال : (الأترام تضحكون) ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا الفهقرمى فقال : إني لما خرجت من الباب جاء جبريل عليه السلام فقال يا محمد إن الله يقول لك : لِمَ تَقْنَطُ عبادى (نبي عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم) » .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه قال فى قوله (نبي عبادى) الآية : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام ، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله لابتجع نفسه » .

وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله سبحانه خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ، فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة ، فلو يعلم الكافر كل الذى عنده من رحمة لم يئأس من الرحمة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله تعالى من العذاب لم يأمّن من النار » .

الإيضاح

(نبي عبادى أنى أنا الغفور الرحيم) أى أخير أيها الرسول عبادى أنى أنا الذى يستردونهم إذا تابوا منها وأنابوا بترك فضيحتهم بها وعقوبتهم عليها ،

الرحيم بهم أن أعذبهم بعد أن توبتهم منها . وفي قوله (نبي عبادي) إيماء إلى أنه ينبيء كل من كان معترفاً بعبوديته ، فيشمل ذلك المؤمن المطيع والمعاصي ، وغير خاف مافي ذلك من تغليب جانب الرحمة من قبله تعالى على جانب العقاب .

(وأن عذابي هو العذاب الأليم) أى وأخبرهم أيضاً بأن عذابي لمن أصر على معاصي وأقام عليها ولم يتب منها - هو العذاب المؤلم الموجه الذى لا يشبهه عذاب آخر ، وفى هذا تهديد شديد وتحذير لخلقهم أن يقدموا على معاصيه ، ومن الأمر لهم بالإجابة والتوبة .

والخلاصة - إن الله جمع لعباده بين التبشير والتحذير ليكونوا على قدمي الرجاء والخوف وحال الأُنس والهيبة .

ثم ذكر سبحانه قصصاً تقدم مثله بأسلوب آخر فى سورة هود وبدأ بخصص إبراهيم عليه السلام فقال :

(ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً) أى أخبر عبادي عن ضيوف إبراهيم خليل الرحمن وهم الملائكة الذين أرسلهم الله إلى قوم لوط ليستأصلوا شأقتهم ويبيدوهم على ظلمهم ، فقالوا حين دخلوا عليه سلاماً : أى سلمت من الآفات والآلام سلاماً .

(قال إنا منكم ورجلون) أى قال إبراهيم للضيف : إنا خائفون منكم ، لأنهم دخلوا عليه بلا إذن وفى وقت لا يجيء فى مثله طارق ، أو لأنه حين قرّب إليهم العجل الحنيد لم يأكلوا منه ، والضيف إذا لم يأكل مما يقدم له من الطعام يظن أنه لم يأت بخير ، ويؤيد هذا قوله فى سورة هود : « فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَاتَّصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً » .

(قالوا لا تجمل) أى قال الضيف لإبراهيم : لا تحف ولا يجم حول ساحتك الحزن والملح .

ثم علل النهى عن الوجبل بقوله :

(إنا نبشرك بغلام علم) أى إنا جئناك بالبشرى بغلام ذى علم وفطنة وفهم
لدين الله ، وسيكون له شأن لأنه سيصير نبيا .

ونحو الآية قوله : « وَبَشِّرْنَاهُ يَاسْحَاقَ نَبِيًّا » .

ثم قال إبراهيم متعجبا من مجيء ولد من شيخ وعجوز :

(أبشرتمنى على أن مسنى الكبر ؟) أى أبشرتمنى بذلك مع مس الكبر

وتأثيره فى ، وتلك حال تنافى هذه البشرى .

(فم تبشرون) أى فبأى أعجوبة تبشرون ؟ إذ لا سبيل فى العادة إلى مثل

ذلك ، وكأنه عليه السلام أراد أن يعرف : أيعطى هذا الولد مع بقاءه على حاله من

الشيخوخة التامة ، أو يرجع شابا ثم يعطى الولد ، لما جرت به العادة من أن الولد

لا يكون إلا حين الشباب .

فأجابوه مؤكدين ما بشروه به تحقيقا لما قالوا وليكون بشارة بعد بشارة .

(قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين) أى قال ضيف إبراهيم له :

بشرناك بما يكون حقا ، وإنا لنعلم أن الله قد وهب لك غلاما ، فلا تكن من الذين

يقنطون من فضل الله فيياسوا من خرق العادة ، بل أبشربما بشرناك به

واقبل البشرى .

والخلاصة — إنه عليه السلام استعظم نعمة الله عليه فاستفهم هذا الاستفهام

التعجبى المبني على السنن التى أجزاها الله بين عباده ، لأنه استبعد ذلك على قدرة

الله ، فهو أجل من ذلك قدرا ، ويؤيد هذا جوابه عليه السلام .

(قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) أى قال إبراهيم للضيف : لا يئأس

من رحمة الله إلا من أخطأ سبيل الصواب ، وغفل عن رجاء الله الذى لا ينجيب من

رجاه ، فضل بذلك عن الرأى القيم ، وهذا كقول يعقوب : « لَا يَيْئَاسُ مِنْ رَوْحِ

اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » .

وخلاصة مقاله — إنه نفي القنوط عن نفسه على أتم وجه ، فكأنه قال : ليس
بني قنوط من رحمة تعالى ، ولكن جالي تنافى فيض تلك النعم الجميلة التي غمرني بها ،
وتوالى المكرمات التي شملت آل هذا البيت .

و بعد أن تحقق عليه السلام مصداق هذه البشرية ورأى أنهم أتوا مختلفين على
غير ما عهد عليه ملك الوحي ، سألهم عن أمرهم ليزول عنه الوجل .

(قال فما خطبكم أيها المرسلون) أي قال لهم : ما الأمر العظيم الذي جئتم لأجله
سوى البشرية ، وكأنه عليه السلام فهم من مجرى حديثهم في أثناء الحوار أن ليست
هذه البشرية هي المقصودة ، بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا لأنهم كانوا عدداً والبشارة
لاحتجاج إلى مثل هذا العدد ، ومن ثم اكتفى بالواحد في بشارة زكريا ومريم عليهما
السلام ؛ وأيضا لو كانت البشارة هي المقصودة لابتدعوا بها ، فأجابوه .

(قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) أي قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين من
قوم لوط ، واكتفوا بهذا القدر من الجواب ، لأن إبراهيم يعلم أن الملائكة إذا أرسلوا
إلى الجرمين كان ذلك لهلاكهم وإبادتهم . وبما يرشد أن يفهم هذا الفهم قولهم .

(إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين) أي إلا أتباع لوط في الدين فإن نهلكهم
بل ننجيهم من العذاب الذي أمرنا أن نعذب به قوم لوط .

(إلا امرأته قد ربنا إنهما لمن العابرين) أي لانهلك آل لوط وأتباعه إلا امرأته
فقد قضى الله أنها من الباقيين مع الكفرة ثم هي مهلكة بعد ذلك معهم ،
وقد أضاف الملائكة هذا التقدير إلى أنفسهم مع أنه لله تعالى ، بيانا لمزيد قربهم من
ربهم واختصاصهم به تعالى كما يقول خاصة الملك : دبرنا كذا وأمرنا بكذا ، والمدبر
الأمر هو الملك .

و بعد أن بشروا إبراهيم عليه السلام بالولد وأخبروه بأنهم مرسلون بعذاب قوم
مجرمين — ذهبوا إلى لوط وآله كما قال سبحانه .

(فلما جاء آل لوط المرسلون . قال إنكم قوم منكرون) أى فلما خرج المرسلون من عند إبراهيم وجاءوا قرية لوط أنكروهم لوط ولم يعرفهم وقال لهم : من أى الأقوام أنتم ، ولأى غرض جئتم ؟ وإنى أخاف أن تمسوني بمكروه .

ونحو الآية قوله : « وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا » وإنما قال هذه المقالة ، لأنه لم يشاهد من المرسلين حين مقاساة الشدائد ومعاناة المكياد من قومه الذين يريدون بهم ما يريدون - إعانة ولا مساعدة فيما يأتى وما يندر حين تجشم الأهوال فى تخليصهم فأنكر خذلانهم له وتركهم نصره حين المضايقة التى حلت به بسببهم حتى اضطر إلى أن يقول : « لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ » كما جاء فى سورة هود .

(بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) أى قال له الرسل : ما جئناك بما خطر ببالك من المكروه ، بل بما فيه سرورك وهو عذابهم الذى كنت تحذرهم منه وهم يكذبونك فيه قبل مجيئه ، فأنى لك بعد هذا أن يعتربك مساءة وضيق ذرع ؟ .

وخلاصة ما أرادوا أن يقولوا - ماخذلناك وما خلدنا بينك وبينهم ، بل جئناك بما يدمرهم ويهلكهم من العذاب الذى كنت تتوعدهم به وهم يكذبونك .

واختاروا هذا الأسلوب ولم يقولوا جئناك بعذابهم لإفادة ذلك شيئين : تحقق عذابهم وتحقق صدقه عليه السلام بعد أن كابد منهم كثيرا من الإنكار والتكذيب . (وأتيناك بالحق وإنا لصادقون) أى وجئناك بالأمر المحقق المتيقن الذى لا مجال فيه للامتراء والشك وهو العذاب الذى كتب وقدر لقوم لوط ، وإنا لصادقون فيما أخبرناك به .

ثم شرعوا يرتبون له مبادئ النجاة قبل حلول العذاب بقومه فقالوا له : (فأسر بأهلك بقطع من الليل) أى فسر بأهلك ببقية من الليل ، وأهله على ماروى هم بنتاه .

(واتبع أديارهم) أى وكن من وراء أهلك الذين تسرى بهم ، وعلى إثرهم لتذود عنهم وتسرع بهم وتراقب أحوالهم حتى لا يتخلف منهم أحد لغرض فيصيبه العذاب .

(ولا يلتفت منكم أحد) فيرى ما ينزل بقومه فيرق قلبه لهم ، وليوطن نفسه على الهجرة ويطيب نفسا بالانتقال إلى المسكن الجديد ، ثم أكد هذا النهى بقوله : (وامضوا حيث تؤمرون) أى وامضوا حيث يأمركم الله غير ملتفتين إلى ما وراءكم كالذى يتحسر على مفارقة وطنه ، فلا يزال يلوى له أخادعه كما قال أبو تمام :

تلفت نحو الحى حتى وجدتهى وجعت من الإصغاء ليتها وأخذعا

والخلاصة — إنهم أمروا بمواصلة السير ونهوا عن التواني والتوقف ، ليكون ذلك أقطع للعوائق ، وأحق بالإسراع للوصول إلى المقصد الحقيقى وهو بلاد الشام .
(وقضينا إليه ذلك الأمر) أى وأوحينا إليه أن ذلك الأمر مقضى مبتوت فيه ؛ ثم فصل ذلك الأمر فقال :

(أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) أى إن آخر قومك وأولهم مجذوذ مستأصل صباح لياتهم ولا يبقى منهم أحد ، ونحو الآية قوله : « قَطُّعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا » .

ثم شرع يذكر ماصدر من القوم حين علموا بتدوم الأضياف وما ترتب عليه مما أشير إليه أولا على سبيل الإجمال فقال :

(وجاء أهل المدينة يستبشرون) أى وجاء أهل سذوم حين سمعوا أن ضيفا قد ضافوا لوطا - مستبشرين بنزولهم مدينتهم طمعا فى ركوب الفاحشة منهم .

وفى هذا إيحاء إلى فضاة فعلمهم ، إذ هم خالفوا ماجرى به العرف وركب فى الأدواق السليمة من إكرام الغريب وحسن معاملته ، وقصدوا بهم الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين .

روى أن امرأة لوط أخبرتهم بأنه نزل بلوط ثلاثة من المرء مارأينا قط أصبح منهم وجها ولا أحسن شكلا ، فذهبوا إلى دار لوط طالبا لهم مظهرين اغتباطا وسرورا بهم .

ثم أذبر عن مقالة لوط لقومه حين رآهم يقصدون بهم السوء .

(قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحوني) أى قال لوط لقومه : إن هؤلاء الذين جئتموهم تريدون منهم الفاحشة ضيفي ، وحق على الرجل إكرام ضيفه فلا تفضحوني فيهم وأكرموني بترك التعرض لهم بمكروه .
ثم زاد النهي توكيدا بقوله :

(واتقوا الله ولا تخزون) أى وخافوا الله في وفى أنفسكم أن يحل بكم عقابه ، ولا تهينوني فيهم بالتعرض لهم بالسوء ، وهذه الجملة آكد في الغرض من سابقتها ، إذ التعرض للجار بعد حمايته والذب عنه أجلب للعار ، ومن ثم عبر عن لجاحهم ومجاهرتهم بمخالفته بالخزي وأمرهم بتقوى الله في ذلك .
ثم أبانوا له أنه السبب في الفضيحة وفي هذا الخزي .

(قالوا أو لم ننهك عن العالمين ؟) أى قال قومه له : أو لم ننهك أن تضيف أحدا من العالمين أو تؤويه في قريتنا ، إذ هم كانوا يتعرضون لكل غريب بالسوء ، وكانوا لوط ينهاهم عن ذلك على قدر حوله وقوته ويحول بينهم وبين من يعرضون له ، وكانوا قد نهوه عن التعرض لهم في مثل ذلك .

وخلاصة مقالهم — إن ما ذكرت من الخزي والفضيحة أنت مصدره والجالب له ، فلو لا تعرضك لنا ما أصابك ما أصابك .

ولما رآهم متهادين في غيهم ، لا يرعون عن غوايتهم ولا يقلمون عما هم عليه .

(قال إن هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين) أى قال لوط لقومه : تزوجوا النساء ولا تفعلوا ما قد حرم الله عليكم من إتيان الرجال إن كنتم فاعلين ما أمركم به ، منتهين إلى أمرى ، وقد سمي نساء قومه بناته ، لأن رسول الأمة كالأب لهم كما قال تعالى :
« النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » .

ثم أبان له الرسل أنه لا أمل في إرعوائهم عن غيرهم فقالوا :

(اعمرك إنهم أنفى سكرتهم يعمهون) أى قالت الملائكة للوط : وحياتك أيها الرسول إن قومك أنفى ضلالتهم التي جعلتهم حيارى ولا يعرفون ما أحاط بهم من البلاء ، ولا ماذا يصيبهم من العذاب المنتظر ، لما أصابهم من عمى البصيرة فهم لا يميزون الخطأ من الصواب ، ولا الحسن من القبيح .

ثم ذكر عاقبة أمرهم فقال :

(فأخذتهم الصيحة مشرقين) أى فنزل بهم العذاب المنتظر وأخذتهم الصاعقة وقت الشروق ، وكان ابتداءؤها من الصبح وانتهأؤها حين الشروق ، ومن ثم قال أولاً مصبحين وقال هنا مشرقين ، وأخذ الصيحة قهرها لهم وتمكنها منهم ومن ثم يقال للأسير أخيد .

ثم بين كيفية أخذها لهم وقررتهم فقال :

(فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) أى فجعلنا على المدينة وهو ما على وجه الأرض سافلها فانتقلت عليهم وأمطرنا عليهم أثناء ذلك حجارة من حطين متحجر ، وقد تقدم ذكر ذلك فى سورة هود .

وخلاصة ذلك — إنه تعالى أرسل عليهم ثلاثة ألوان من العذاب .

(١) الصيحة المنكرة الهائلة والصوت المفزع الخفيف :

(٢) إنه قلب عليهم القرية فجعل عاليها سافلها .

(٣) إنه أمطر عليهم حجارة من سجيل .

ثم ذكر أن فى هذا القصاص عبرة لمن اعتبر فقال :

(إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) أى إن فيما فعلنا بقوم لوط من الهلاك والعذاب لدلالات المفكرين الذين يعتبرون بما يحدث فى الكون من عظام وعبر ، ويستدلون بذلك على ما يكون لأهل الكفر والمعاصى من عقاب بثيس بما كانوا يكسبون .

أخرج البخارى فى التاريخ والترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو نعيم

وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى، ثم قرأ: إن في ذلك لآيات للمتوسمين » .
والفراسة على نوعين :

(١) ما يوقعه الله في قلوب الصالحاء فيعلمون بذلك أحوال الناس بالحدس والظن
(٢) ما يحصل بدلائل التجارب والأخلاق .

وقد صنف الناس في القديم والحديث كتباً في ذلك و بعض العلماء يجعلها دليلاً يحكم به كما فعل إياس بن معاوية (كان قاضياً ذكياً في عهد التابعين) .
ثم لفت أنظار أهل مكة إلى الاعتبار بها لو أرادوا فقال :

(وإنها لبسيل مقيم) أى وإن هذه المدينة - مدينة سدوم - التى أصابها ما أصابها من العذاب - لبطريق واضح لا تخفى على السالكين ، فأثارها باقية إلى اليوم لم تندثر ولم تخف ، فالذين يعمرون عليها من الحجاز إلى الشام يشاهدون آثارها كما قال فى الآية الأخرى « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَ بِاللَّيْلِ أَفْلاً تَعْقُبُونَ ؟ » .

ثم أبأس من اعتبارهم بها ، إذ هى لا يعتبر بها إلا المؤمنون فقال :
(إن فى ذلك لآية للمؤمنين) أى إن فيما فعلناه بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطاً وأهله - لدلالة جلية للمؤمنين المصدقين بالله ورسله ، إذ هم يعرفون أن ذلك إنما كان انتقاماً من الله لأنبيائه من أولئك الجهال الذين عصوا أمر ربهم وكفروا برسله ولم يرفعوا عن غيهم وضلالهم بعد إنذارهم ونصحهم .

أما الذين لا يؤمنون بالله فيجعلون ذلك حوادث كونية لأسباب فلكية وشؤون أرضية ، جعلت الأرض تنهار لحدوث فراغ فى بعض أجزائها ، كما يشاهد اليوم فى البلاد ذات البراكين من اختفاء بلاد فى باطن الأرض وابتلاع الأرض لها كما حدث فى مدينة مسينا بإيطاليا سنة ١٩٠٩ وظهر جزائر فى وسط المحيطات لم تكن من قبل .

و بعد أن ذكر قصص قوم لوط أتبعه بتقصص قوم شعيب عليه السلام فقال :
 (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين) أى وإن أصحاب الأيكة كانوا يجلبتيم
 ظالمين كفاراً ليس لديهم استعداد للإيمان بالله ورسوله ، أرسل الله إليهم وإلى أهل
 مدين شعيباً فكذبوه .

أخرج ابن مردويه وابن عساکر عن ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم « إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيباً » .
 (فانتقمنا منهم) جزاء ما دنسوا به أنفسهم من الكفر والمعاصي ، فسلط على
 أصحاب الأيكة الحر سبعة أيام لا يُظِلُّ منه ظلٌّ ، ولا ينعهم منه شيء ، ثم أرسل
 عليهم سحابة فحوا تحتها يلتمسون الروح منها ، فبعث عليهم منها نارا فاضطربت
 عليهم فأكلتهم ، فذلك عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ، وأما أهل مدين
 فقد أخذتهم الصيحة .

ثم ذكر أنه قد كان من حق قريش أن يعتبروا بهما فقال :
 (وإنهما لبايمام مبين) أى وإن مدينة أصحاب الأيكة ومدينة قوم لوط
 - لبطريق واضح يأتون به في سفرهم - ويهتدون به في مسيرهم .
 ثم ذكر سبحانه قصة صالح بقوله :

(ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) أى ولقد كذبت ثمود بنبيهم صالحاً
 عليه السلام ، ومن كذب رسولا من رسل الله فكأنما كذب الجميع ، لاتفاق كلمتهم
 على التوحيد والأصول العامة التي لا تختلف باختلاف الأمم والأزمان .
 (وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين) أى وأرسلناهم حججنا الدالة على نبوة
 صالح عليه السلام من الناقة وغيرها فأعرضوا عنها ولم يعتبروا بها .

(وكانوا ينتحون من الجبال بيوتاً آمنين) من هدمها ونقب اللصوص لها
 أو تخريب الأعداء لها لقوة أسرها وبديع إحكامها ، وقد تقدم تفصيل ذلك
 في سورة الأعراف .

ثم ذكر ميقات هلاكهم فقال :

(فأخذتهم الصيحة مصبحين) أى فأخذتهم صيحة الهلاك حين كانوا فى ضحوة اليوم الرابع من اليوم الذى أوعدوا فيه بالعذاب كما جاء فى قوله : « وَقِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرٍ مَّكَذُوبٍ » .

(فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى فما دفع عنهم ما نزل بهم ما كانوا يكسبون من نجات البيوت وجمع الأموال وكثرة العدد وجمع العدد ، بل خروا جائعين هلكى حين حل بهم قضاء الله .

روى البخارى وغيره عن ابن عمر « أن النبى صلى الله عليه وسلم مرّ بالحجر وهو ذاهب إلى تبوك فقتع رأسه وأسرع براحلته وقال لأصحابه : لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم » . وأخرج ابن مردويه عنه قال : « نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة تبوك بالحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من مياه الآبار التى كانت تشرب منها ثمود وعجنوا منها وانبصوا القدور باللحم ، فأمرهم بإهراق القدور وعلف العجين للإبل ، ثم ارتحل عن البئر التى كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال : إني أخشى عليكم أن يصيبكم مثل الذى أصابهم فلا تدخلوا عليهم » .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦) .

شرح المفردات

بالحق : أى بالحكمة والمصلحة ، والساعة يوم القيامة ، والصفح : ترك التثريب واللوم ، والصفح الجميل : ما خلا من العتب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى القصص السالف إهلاك الأمم المكذبة لرسالتها وعذابها بشتى أنواع العذاب كفاء ما دنسوا به أنفسهم من فظائع الشرك وأنواع المعاصى التى تقوّض دعائم الإخلاص لبارئى القسم وتهتد أركان نظم المجتمع ؛ بعبادة الأصنام والأوثان ، وتطفيف للكيل والميزان ، وإتيان الفاحشة التى تشمئز منها النفوس وتنفر منها الأذواق السليمة - أرشد هنا إلى أنهم بمعاملهم هذا قد تركوا ما قضت به الحكمة والمصلحة من خلق السموات والأرض لعبادة خالقها وطاعته واستقرار نظم المجتمع على وجه صالح صحيح ، ودأبوا على عبادة غيره من الأصنام والأوثان ، فكان من العدل تظهير الأرض منهم دفعا لشروطهم وإصلاحا لمن يأتى بعدهم .

الإيضاح

(وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) أى وما خلقنا الخلاق مما فى الأرض والسماء وما بينهما إلا بالعدل والإنصاف لا بالظلم والجور ، فإهلاكنا للأمم التى كذبت رسالتها وقصصنا عليك قصصها ، وتعجيل العقوبة لهم لم يكن ظلما بل كان عدلا وحكمة .

وفى هذا إيماء إلى أن ما يصيب غيرهم من المكذبين لك من العذاب فى الآخرة فيه عدل ومصلحة للبشر .

ثم هدد العصاة وتوعدهم فقال :

(وإن الساعة لآتية) أى إن يوم القيامة لآت لا ريب فيه ، وحينئذ ينتقم الله ممن يستحق العذاب ويحسن إلى من يستحق الإحسان ، فأرض بما يكون لهم من شديد العقاب .

(فأصغح الصغح الجميل) أى فأعرض عنهم إغراضا جميلا واحتمل أذاهم ، وعاملهم معاملة الصغوح الجميل .

وخالصة ذلك — خالقهم بخلق حسن ، وتأن عليهم ، وأحلم عنهم وأبذرهم
وادعهم إلى ربك قبل أن تقاتلهم .

(إن ربك هو الخلاق العليم) أى إن ربك هو الذى خلقهم وخلق كل شيء
وهو العليم بهم وبما يأتون وما يذرون ، وهو المدبر لأموهم والمقدر لها على وجه
الحكمة والمصلحة .

وقصارى ذلك — إنه خالقك وخالقهم ، وعليم بأحوالك وأحوالهم ، ولا يخفى
عليه شيء مما جرى بينك وبينهم ، تخلق بك أن تكمل الأمور إليه ، ليحكم بينك
و بينهم ، وقد علم أن الصفيح الجليل أولاً أولى بهم إلى أن يحكم السيف بينك وبينهم .

وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ
عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ
لِلذِّمَّةِ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ
(٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢)
عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُونَ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ
(٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧)
فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ
الْيَقِينُ (٩٩)

شرح المفردات

المتانى : واحدها متى من التثنية وهو التكرير والإعادة ، ومد عينيه إلى مال
خلان : اشتهاه وتمناه ، والأزواج : واحدها زوج وهو الصنف ، وخفض الجناح :

يراد به التواضع واللين، وأصل ذلك أن الطائر إذا أراد أن يضم فرخه إليه بسط جناحيه له، والجناحان من الإنسان: جانباه، والنذير: الخوف بعقاب الله من لم يؤمن به، وعضين: أى أجزاء واحدها عضه من عضيت الشاة جعلتها أعضاء وأقساماً، فاصدع بما تؤمر: أى اجهر به من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً، يضيق صدرك: أى يتقبض من الحسرة والحزن، والساجدين: أى المصلين، واليقين: الموت وسمى به لأنه أمر متيقن لا يشك فيه.

المعنى الجملى

بعد أن أمر رسوله أن يصبر على أذى قومه وأن يصفح عنهم الصفح الجميل - أردف ذلك بذكر ما أولاه من النعم، وما أغدق عليه من الإحسان، ليسهل عليه الصفح، ويكون فيه سلوة له على احتمال الأذى، فذكر أنه آتاه السبع المثاني - الفاتحة - والقرآن العظيم الجامع لما فيه هدى البشر وصلاحهم في دنياهم وآخرتهم. وبعد أن ذكر له تظاهر نعمه عليه نهاه عن الرغبة في الدنيا ومد العينين إليها بتنى ما فيها من متاع، ونهاه عن الحسرة على الكفار إن لم يؤمنوا بالقرآن وبما جاء به وأمره بالتواضع لفقراء المسلمين، وبإندار قومه المشركين بتبليغهم ما أمر به الدين وما نهى عنه، بالبيان الكافي، والإعذار الشافي، وبيان عاقبة أمرهم بتحذيرهم أن يحل بهم ما حل بالمتسمين - اليهود والنصارى - الذين جعلوا القرآن أقساماً فأمنوا بما وافق التوراة وكفروا بما عدا ذلك، ويبين لهم أنه سيسألهم ربهم عن جريرة أعمالهم.

ثم أمره أن يعلن ما أمر به من الشرائع، ولا يلتفت إلى لوم المشركين وثرية بهم له ولا يبال بما سيكون منهم، فالله تعالى كفاه أمر المستهزئين به وأزال كيدهم، وإذا ساوره ضيق الصدر من سماع سفههم واستهزائهم كما هو دأب البشر، فليسبح ربه

وليحمده وليكثر الطاعة له ، فالعبد إذا حزبه أمر نزع إلى طاعة ربه وقد كفل سبحانه أن يكشف عنه ما أهمه .

الإيضاح

(ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم) أى ولقد أكرمناك بسبع آيات هى الفاتحة التى تثنى وتكرر فى كل صلاة ، وهذا قول عمر وعلى وابن مسعود لما روى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أم القرآن السبع المثاني التى أعطيتها » أو لأنها قسمت قسمين : ثناء ودعاء ، وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين » وأكرمناك أيضا بالقرآن العظيم .

وتخصيص الفاتحة بالذكر من بين القرآن الكريم لمزيد قضاها على نحو ما جاء فى قوله تعالى : « وَمَلَأْنَاهُ كِتَابَهُ وَرُسُلَهُ وَجِبْرِيْلَ وَمِيكَالَ » .
وبعد أن عرف سبحانه رسوله عظيم نعمه عليه فيما يتعلق بالدين - نهاه عن الرغبة فى الدنيا فقال :

(لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم) أى لا تمنين أيها الرسول ما جعلنا من زينة الدنيا متاعا للأغنياء من اليهود والنصارى والمشركين ، فإن من وراء ذلك عقابا غليظا .

والخطاب وإن كان موجها إلى النبى صلى الله عليه وسلم - تعليم لأئمة كما تقدم مثله كثيرا ، يؤيد هذا ما روى أنه أتت من بصرى وأذرعات سبع قوافل لقرينة والنضير فى يوم واحد فيها أنواع من البرِّ (الأقمشة) والطيب والجواهر ، فقال المسلمون : لو كانت لنا لتقويننا بها ولأنفقناها فى سبيل الله .

وخلاصة ذلك - لقد أوتيت النعمة العظمى التى إذا قيست بها كل النعم كانت حقيرة ، فقد أوتيت سبع آيات هى خير من السبع القوافل .

(ولا تحزن عليهم) إذ لم يؤمنوا ليقوى بمكانهم الإسلام وينتفش بهم المؤمنون ؛ وقد كان صلى الله عليه وسلم يود أن يؤمن به كل من بعث إليه ، ويتمنى لمزيد شفقته عدم إصرار الكفار على كفرهم .

وبعد أن نهاء عن الالتفات إلى الأغنياء من الكفار أمره بالتواضع لفقراء المسلمين فقال :

(واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) أى وألن جانبك وارفق بمن آمن واتبعك ، ولا تجف بهم ولا تغلظ عليهم .

ونحو الآية قوله تعالى : « أذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ » وقوله فى صفة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءٌ بَيْنَهُمْ » ثم بين وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال :

(وقل إني أنا النذير المبين) أى أنا النذير للناس من عذاب ألم أن يحل بهم على تماديهم فى غيرهم كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلاها فاتتقم الله منهم بانزال العذاب بهم .

وفى الصحيحين عن أبى موسى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال يا قوم : إني رأيت الجيش بعينى وإني أنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدجلوا وانطلقوا على مهملهم فنجوا ، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق » .

(كما أنزلنا على المقتسمين . الذين جعلوا القرآن عضين) أى ولقد آتيناك سبعا من المثاني كما آتينا من قبلك من اليهود والنصارى التوراة والإنجيل ، وهم الذين اقتسموا القرآن وجزءوه أجزاء فأمنوا ببعضه الذى وافق كتابيهما ، وكفروا ببعضه

وهو ما خالفهما - أخرج ذلك البخارى وسعيد بن منصور والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس من طرق عدة .

وبعد أن بين وظيفة الرسول ذكر أن الحساب على الأعمال موكول إلى الله لا إليه فقال :

(فور يك لنسألهم أجمعين . عما كانوا يعملون) أى فلنسالن الكفار جميعا سؤال تأنيب وتوبيخ لهم على ما كانوا يقولون ويفعلون فيما بعثناك به إليهم وفيما دعوناهم إليه من الإقرار بى وبتوحيدي والبراءة من الأنداد والأوثان ، روى أبو جعفر عن الزبيع عن أبي العالية فى تفسير الآية قال : يسأل الله العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة عما كانوا يعبدون ، وعمادا أجابوا المرسلين .

وعن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا معاذ إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه ، وعن فُتات الطينة بإصبعه ، فلا أَلْفَيْتَكَ يوم القيامة وأحدٌ غيرك أسعد بما آتاك الله منك » .

وبعد أن ذكر أن وظيفته التبليغ شدد عليه فى الجهر به جهد المستطاع فقال :
(فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) أى اجهر بإبلاغ ما أمرت به من الشرائع وواجه به المشركين ، ولا تلتفت إلى ما يقولون ولا تنال بهم ولا تحفهم ، فإن الله كافيكهم وحافظك منهم .

ولما كان هذا الصدع شديدا عليه لكثرة ما يلاقيه من أذى المشركين ذكر أنه حارسه وكائنه منهم فلا يخشى بأسهم فقال :

(إنا كفيناك المستهزئين) أى إنا كفيناك شر المستهزئين الذين كانوا يسخرون منك ومن القرآن ، وهم طائفة من المشركين لهم قوة وشوكة كانوا كثيرى السفاهة والأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين يرونه أو يمر بهم ، أفنهم الله وأبادهم وأزال كيدهم ؛ وقد اختلف فى عدتهم فقوم يقولون هم خمسة : الوليد بن المغيرة والعاص ابن وائل وعدى بن قيس والأسود بن عبد يغوث والأسود بن عبد المطلب ، وقد ماتوا

جميعا بأهون الأسباب ، فتملق بثوب الوليد سهم فتكبر أن يبعده عنه فأصاب عرقا
في عقبه فمات ، ومات العاص بشوكة في إخص قدمه ، وأصاب عدى بن قيس مرض
في أنفه فمات ، وأصيب الأسود بن عبد يغوث بداء وهو قاعد في أصل شجرة
فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات (هذه أعراض حمى
التيفوس فيغلب أن يكون قد أصيب بها) وعنى الأسود بن عبد المطلب .

وقوم يقولون هم سبعة من أشرف قريش ومشركيها .

ثم وصف هؤلاء المستهزئين بالشرك فقال :

(الذين يجعلون مع الله إلها آخر) أى هم الذين اتخذوا إلها آخر مع الله يعبدونه .
وفى وصفهم بهذا الوصف تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وتهوين للخطب
عليه ، إذ أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء بمقام النبوة ، بل تعدوه إلى الإشراك بربهم
المدبر لأمرهم والحسن إليهم .

ثم توعدهم على ما كانوا يصنعون فقال :

(فسوف يعلمون) عاقبة أمرهم حين يحل بهم عذاب ربهم ، يوم تجزى كل
نفس بما عملت ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها
وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

وبعد أن سلاه بكفاية شرهم ودفع مكرهم ذكر تساية أخرى له فقال :

(ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) من كلمات الشرك والاستهزاء كما
هو دأب الطبيعة البشرية حين يتوب الإنسان ما يؤله ويجزئه ، أن يرى في نفسه
انقباضا وضيقا في الصدر وأسى وحسرة على ما حل به .

ثم أمره سبحانه بأن يفرغ لكشف ما نابه من ضيق الصدر إلى تسبيح الله
وحمده فقال :

(فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين : واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) أى
إذا نزل بك الضيق ووجهت نفسك فافزع إلى ربك ، ونزهه عما يقولون ، حامدا له

على توفيقك المحق ، وهدايتك إلى سبيل الرشاد ، وصلّ آناء الليل وأطراف النهار ، فإن في مناجاة ربك ما يقربك إلى حضرة القدس ، ويسمو بنفسك إلى الملا الأعلى كما ورد في الحديث « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، ودم على ما أنت عليه طالبا المزيد من فضله ، حتى يأتيك الموت ، فهناك الجزاء بلا عمل ، وهنا العمل ولا جزاء .

وقصارى ذلك — إنه تعالى أرشده إلى كشف ما يحده في نفسه من النعم بفعل الطاعات ، والإكثار من العبادات وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر واشتد عليه خطب ، فزع إلى الصلاة ، روى أحمد عن ابن عمار أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالى يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره » .

وقد حكى الله عن أهل النار أنهم يقولون : « لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ . وَكُنَّا نَحْوُضُ مَعَ الْخَائِضِينَ . وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّىٰ أَنَا الْيَمِينُ » .

وفي هذا دلالة على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على المرء مادام ثابت العقل ، روى البخارى عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صل قائما ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنب » .

اللهم وفقنا لطاعتك ، واهدنا لعبادتك ، واجعلنا من المقيمين الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

خلاصة ما اشتملت عليه السورة الكريمة

من الحكم والأحكام

- (١) وصف القرآن الكريم .
- (٢) الإعراض عن المشركين حتى يحل بهم ريب للنون .
- (٣) استهزاء المشركين وإنكارهم لنبوته محمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم لما يروونه من الآيات .
- (٤) إقامة الأدلة على وجود الله بما يروونه من الآيات في خلق السموات والأرض وفي خلق الإنسان .
- (٥) عصيان إبليس أمر ربه في السجود لآدم وذكر الحوار بينه وبين ربه ، وطلبه الإنظار إلى يوم الدين .
- (٦) بيان حالى أهل الجنة وأهل النار يوم القيامة .
- (٧) قصص بعض الأنبياء وذكر ما أهلك الله به كل أمة من الأمم المكذبة لرسالتها .
- (٨) بيان أن الحكمة في خلق السموات والأرض هي عبادة الله وحده وإقامة العدل والنظام في المجتمع .
- (٩) ذكر ما أنعم الله به على نبيه من السبع المثاني والقرآن العظيم .
- (١٠) نهى نبيه والمؤمنين عن تمنى زخرف الدنيا وزينتها .
- (١١) أمره صلى الله عليه وسلم بخفض الجناح والرفق بمن اتبعه من المؤمنين .
- (١٢) التذكير بنعمة الله عليه بإهلاك أعدائه المستهزئين الذين جعلوا القرآن عضين .
- (١٣) الأمر بالدعوة للدين جهرا والصدع بها وعدم المبالاة بالمشركين .
- (١٤) أمره صلى الله عليه وسلم بالتسبيح والعبادة إذا ضاق صدره باستهزاء للمشركين والظعن فيه وفي كتابه الكريم .